الفصل الثاني والثلاثون

إرتقاب الزيارة

منذ الصباح وأحمد يرتقب قدوم مها بفارغ الصبر.. لقد علم بإمكانية الزيـارة فـي المستشفى، وبدا له أن كسر ذراعه كان نعمة كبيرة لا تعادلها نعمة.. انها تجعلـه يلتقـي بالوجوه الحبيبة، وتعيد اليه تماسه مع العالم والأحداث..

أخبره مدير المستشفى بأنه تلفن لأخيه عبد الوهاب، ولا بد أنه بدوره سيتصل بمها فتسرع للقائه..

مر الحلاق بالغرفة، وحلق له شعره وذقنه ثم جاء الممرض فساعده علـى غـسل وجهه ورأسه.. وبدا منتعشا وأحس بالنشاط يدب الى أعمق أعماقه فتزهر.. ولما شـاهد وجهه بالمرآة رآه ممتلئا وقد شابت سمرته حمرة فعلّق ساخرا:

-لقد سمنت في السجن..

-من أكل العدس بحصاه..

-لي معدة تطحن الحجر..

كانت الغرفة تتسع لستة أشخاص، ونوافذها مشبكة بالحديد، الاّ أن الشمس تـدخلها ساعة أو بعض الساعة عند الصباح، فتبعث في العيون التي عاشت طويلا فـي الظـلام البهجة والمرح.. وفي السرير الجانبي المقابل لسرير أحمد كان الشاعر الحمصي سـليم الكاتب وقد انسكبت عليه الشمس، يلتمع وجهه الأبيض وهو منهمك في تحبير كلمات على الورق.. قال له أحمد مداعبا:

-أسمعنا ما أجادت به قريحتك!

-"أن أموت متأرجحا على طرف حبل،

فذلك ما لايرضيني بأي حال..

انما،

كوني على ثقة يا حبيبتي

أنهم عبثا سينظرون في عيني ناظم الزرقاوين،

ليروا ما فيها من خوف،

اذا ما حاولت يد غجري تعس،

شبيهة بعنكبوت أسود،

أن تضع الأنشوطة في عنقي".

-هذه لناظم حكمت ! لا تستطيع أن تغشني!..

التمعت عيناه الزرقاوان وقال:

-والله يأستاذ أحمد جفّت قريحتي.. ان ما أكتبه لا يضاهي هذه الكلمات التي تعبـر عن نفسي.. وحين أنتهي مما كتبت سأسمعك اياه!

هتف محام كان يصغي الى راديو الترانزستورعلى البطارية:

- إسمعوا الخبر الجديد.. الريس يريد أن يدوس بالجزم كـل مـن يخـرج عـن طاعته!..

-هكذا يقول؟

-بالحرف الواحد.. ان مراتبنا تعلو يوما عن يوم..

كان المحامي ويدعى ناجي الشامي رجلا حياديا لا ينتمي الى أي حزب، وان كـان في أوائل حياته يناصر الكتلة الوطنية، ويعز عليه ما تلقى سوريا من المعاملة الدونيـة، وحين جرت المحاولة لدمج نقابة المحامين في دمشق بتلك التي في القـاهرة كـان مـن المعارضين للدمج، وكان يفسر السبب لمن يسأله من خارج النقابة:

-سيدي، نحن ثلاثمائة محام نملك في صندوق النقابة مبلغا يزيد عن سبعين مليـون ليرة، عدا البنايات التي أصبحت تستثمر لصالح النقابة.. في القاهرة يوجـد فـي النقابـة عشرون محام، وليس في صندوق تقاعدها أكثر من مائتي جنيه.. قلت لهم "انتظروا قليلا، مع الزمن تحلّ الأمور ولكنهم كانوا يريدون فرض الدمج بالقوة.. كنا جميعنا معارضـين لهذا الدمج فنزلنا الى الشارع في مظاهرة فاعتبرونا معارضين للوحدة وصدرت الأوامر باعتقال الشخصيات الفعالة في النقابة وكنت منهم..

كان ناجي الشامي طويل القامة بني العينين ذو وجه مربع، ولقـد أصـيبت أذنـه اليسرى بالتهاب نتيجة الصفع اذ كان يرد الشتائم بمثلها، وكان في خشية أن يفقد سـمعه بها، فرغم العلاج لم تظهر بوادر عودة السمع اليه..

وكان أحمد يمزح معه قائلا:

-حظك جيد، فلديك أذن أخرى تسمع بها ولكن لو كنت شيوعيا فان مبدأ ايزنهـاور كان يفقدك الأذن الأخرى..

وعلّق ضابط بعثي في السرير المواجه لرزق الله:

-لم يتركوا أحدا من شرهم حتى نحن الذين سرنا فـي طليعـة الوحـدة، وزورنـا الإستفتاء في سوريا.. أريد أن أقول كما قال صحفي لبناني "بلا قومية عربية، وبلا علاك مصدي، القصة قصة ظلم وسلب ونهب وتدجيل.. قيل "يافرعون مين فرعنك؟ قال مالقيت حدا يردني!"

قال الشاعر "يظهر أنه ما ناولوه!"

-مشي حاله! أعطوه في الشهر عشرة آلاف، بس كانوا يعطون صـاحب الـصياد ثلاثين ألفا، وكان غاضبا فتراضوا معه على خمسة عشر ألفا.. لست أتحدث عن إشـاعة أنا بنفسي كنت حاضرا.. ولكن ليس هذا هو المهم.. المهم أنهم يتخلصون من فئـة بعـد أخرى.. حتى المقدم حميد غاضبين عليه.. الآن المباحث المصرية تحكم.. وأخيرا لن يبق سوري في مركز حساس، حتى يقولوا بأننا لا نصلح للحكم.. عملية ملغومـة، ثـم يطبقون الكلاّبة على أعناقنا.. كل من يعمل في المباحث اليوم يصفي خصومه، كأننا إنسان فقد عقله..

قال أحمد معلقا:

-خاضت سوريا غمار تجربة.. صهرتها هذه التجربة.. زالـت شـوائب الأوهام عن عينيها.. وستعود أصفى مما كانت وأكثر توهجا مما كانت.. شعبنا شعب بطل، ومن الخير لبلاد العرب أن سوريا هي التي جربت بجراحها أن من الشعارات الجميلة البراقة ما يختفي وراءه أنياب سامة!..

وعاد الضابط الى القول:

-يقولون أن أكثر الأشياء دواما هي الأشياء الموقتة.. كلما ثـار ضـمير واحد الى ما يجري، أنشبوا فيه أظافرهم وبحثوا عن غر جديد يركبون ظهـره الى أن يفتح عينيه، كم كنا أغبياء!

وأردف سمعان الناطور متوجعا:

-طلعت في مظاهرة منشان الخبز.. خبز حامض مر يزرق لونه ويتغير طعمه بعد ما يبرد.. طلعنا مع عمال عاطلين أفلست مصانعهم وأغلقت لأن المنسوجات المصرية غرقت السوق.. ما سمعتوا بالمظاهرة؟ أطلقوا الرصاص وصابوا رجل من حينا إسمه عبد الله الجابر.. لحقوني رجال الشرطة لأني كنت أهتف بأعلى صوتي.. دخلوا البيت وكسروا الصحون وثارت زوجتي في وجوههم "لا أراكم الله وجه الخير" فركلها أحدهم في بطنها.. فبصقت في وجهه وقالت "أتركل أما في بطنها ياسافل؟ أم جابت ستة أولاد؟ جروها وضربوها فضربتهم وعضتهم.. فنزلت أنا من السقيفة.. سلخوني علقة مرتّبة وجابوني لبيت خالتي.. آه ياجروحي الملتهبة علي! وعلّق الضابط:

-أحمد ربك أنهم ما تجاوزوا ركل مرتك في بطنها.. تحدث أشياء لايتصورها عقل المجتمع السوري.. مباحث فلتانة.. خطفوا بنت حلوة جنب اللابيك.. مشهورة قصص فلان في حلب! كلما شاف بنت حلوة اعتقل أبوها أو أخوها أو خطيبها بتهمة الشيوعية، فإذا ما جاءته تطلب الإفراج عنه لأن كل الناس يعرفونه بأنه ليس شيوعيا، ساومها عن نفسها.. ارتكب أربع عشرة حادثة هتك أعراض، سمع عنها فنقلوه الى دمشق.. قال الشاعر:

-حمدا لله أنه ليس في بيتي أخت أو زوجة في ألق الصبا والجمال فيكبر همي عليها، وأنا هنا لاأملك حولا ولا قوة..

لم ينتبه أحمد بعد ذلك الى ما يدور حوله.. أخذ يفكر في مها.. صورتها تتردد في خياله، لم تكن أبدا تفارق خياله، يقلقه أن تكون في حاجة، ويلفح قلبه الخوف أن تقع في شرك ينصبه الأوغاد لها.. ان ألاعيب الأوغاد في غاية السفالة وهي لا تخطر في بال أحد.. وكم بقي مسهدا لا يزور النوم جفنيه يسمع شخير أو أنين رفاقه في الغرفة، وينشقّ الصباح وتزور الشمس الموقتة الغرفة

وهو لا يزال يذكرها ويذكر أياما حلوة بقربها.. وتأخذه النشوة لحـديثها "مـاذا ينقصنا؟ أنا لست أسعد مني في الأيام الحلوة مني في الأيام العصيبة" حقا كانـا سعيدين بحبهما، سعيدين بما يوليه لهما شرفاء الناس من احترام وتقدير.. كـان يريد أن يراها ويهمس في أذنها "علينا يا حبيبتي أن نظل مرفوعي الرأس مهما طالت أيام المحنة وأظن أنها لا تطول!"..

ويجد نفسه يناجيها ويعزيها عن الحرمانات التي تلقاها في غيابه "لن نضيع سعادتنا واحترام الناس لنا بتوافه متطلبات الجشع الذي طالما قاد كثيرين الـى خيانة أمتهم ووطنهم.."

ويذكر عزيز فيلتهف قلبه له.. لقد وعده يوم اعتقـل فـي الطريـق إلـى بيروت, أن يشتري له سيارة إطفائية من لبنان، وحتى الآن لم يبر بوعده!

كان أول الزوار أم الشاعر التي جاءت تحمل سلّة بيض لابنها، وكان يبدو من مظهرها والملاءة الكالحة التي تلف بها نفسها أنها امرأة كادحة لعلها تغسل الثياب للناس بعد غياب معيلها..

أخرجت بعض الصحف وناولتها لابنها وهي تقول:

-فتشني الحارس عند الباب فلما وجد معي الصحف قال بأنها ممنوعـة.. قلت له "الحق بيدك يا بني، ليس فيها شيء يحرز القراءة، ولكـن أحـضرتها ليتسلّى إبني ورفاقه بحل الكلمات المتقاطعة!"

وكان التالي في الزيارة هو الأستاذ رزق الله.. تقاطرت أسرته وأصدقاؤه يحملون الزهر والأطعمة وباكيتات الشوكولاتة.. وجلسوا على طرفي السرير، وأخذوا يحدثونه بما فعلوا حتى أجريت له العملية، بينما قامت فتـاة بتـضييف نزلاء الغرفة من الشوكولاتة..

أسند أحمد رأسه الى الوسادة وأخذ يفكر:

-لم لم تسرع مها لزيارته؟ أين هي وأين تعيش؟ أترى أحد اسـتثارها أو ورطها في شيء.. انهم ليسوا الاّ أشباه رجال، فسقة، غليظي الأكباد.. لا يمكن أن تتأخر دون مبرر.. وشعر بالرعب يجتاحه.. وأصغى فجأة الى ضمير الغيب ليسمع صوت عزيز يبكي وقد فقد أمه وأباه!

تنهد، وأحس بقلبه يقرع صدره.. لن تكون للحياة معنى لوفقدها! كان يعلم أن النضال صعب شاق، وأنه وهو المتمـسك بعـدل جديـد سـيتلقى أقـسى الضربات.. كل شيء محتمل، وعليه أن يعود نفسه على أسوأ الإحتمالات! أما وأن تبلغ النذالة بالعهد الأسود الذي يستهدفه أن ينال من أسرته فهـذا سـيكون فوق كل احتمال!..

كان سمعان الناطور قربه يصلي العصر بتمتمة شفتيه وإحناء رقبته.. انه لا يعرف ماذا يجمع بين الرجل المتعطّل الذي تظاهر من أجل الخبز المر مـع العمال الذين أغلقت مصانعهم وسرحوا من أعمالهم، مع مطـران الأرثـوذكس الذي راح يستجدي الرحمة لابن ملّته، مع الضابط البعثي الذي رمي في الكهف وهو بين الحياة والموت لأنه اضطلع على سرهم، مع التاجر الذي يخـسر ولا يسمح له بتحسين وضعه في المنافسة غيرالمتكافئة، مع المحامي الذي يـرفض دمج نقابته المزدهرة بانجازاتها التعاونية، مع نقابة مصر العاجزة عن أن تؤمن المستقبل لأفرادها، مع الشاعر الذي يحفظ أشعار ناظم حكمت عن ظهر قلـب ويجد فيها الخلاص..

تأوه أحمد وقد تحول ألمه الخاص المشعر بقلبه الى ألم مـن أجـل بلـده الصغير الذي يستغله البلد الكبير، من أجل سوريا حاملة مشعل الحرية ضد كل المستعمرين، حاملة الراية الجديدة لوحدة العرب وعزة العرب وتكاتفهم، سوريا التي تلهب اليوم كتفيها العاريتين بسياط أعوان الإستعمار الحديث، سوريا التي كانت تؤرق المستعمرين برفضها مشاريعهم واحدا تلو الآخر، سـوريا التـي

عززت قوتها بالسلاح والتصنيع ومشروع السدود على نهر الفـرات، سـوريا قائدة التحرر من التبعية والإستعمار القديم والحديث!

كان قلبه يدمي من أجل هذا البلد الصغير الأبي الذي خدع عـن طريـق أشرف عاطفة فيه، وهي الوحدة، ليصبح مجرد سلعة يتاجر بها زعـيم مـصر ويقبض عليها القروض والمساعدات..

لم تكن الوحدة من أجل شعب مصر، بل لتجارها الذين يـستوردون مـن الخارج، ويجبرون التاجر الـسوري علـى الـشراء مـنهم ليحـصلوا علـى الكومسيون.. التجار المصريون الذين يبيعون مـصر وسـوريا للإحتكـارات الأمريكية!..

قال سمعان الناطور وهو يتشهد ثم يسلّم على الملكين الحارسين:

-حرموني الصلاة في الجامع، الله يحرمهم ضوء أعينهم.. كنـت أكـسب ثواب الصلاة وراء إمام!

حلم الإنسان في المساواة يخدع عيني ذلك المـسكين المتعطـل الجـائع، فيحسب نفسه ندا لشيخ من شيوخ البترول الذي تحوي خزنته ملايين الدولارات من الإتجار بنسغ الأرض.. كيف يمكن للحقيقة أن تبين لعين هذا المسكين وقـد كبلوه بالجهل، وبتلك المساواة الموهومة التي تزرع الكبرياء في صـدره بأنـه مساو لهؤلاء الذين لاتطأ أقدامهم الجوامع الاّ في الأعياد!

قال له أحمد:

-ان تعطّلك صلاة، وحرمانك صلاة، وتظاهرك صلاة، وجروحك الملتهبة صلاة.. انك أكرم عند الله من الإمام!

نظر الرجل دهشا الى أحمد وقال بمزيج من الغضب والريبة:

-أستغفر الله يا أستاذ أحمد، ألم يقل الله أن الصلاة وراء إمام هي بمائة صلاة؟!..